

الشكر

المتروبوليت أثناسيوس مطران ليماسول

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

عندما كنت في الجبل المقدس آثوس، قال لي مرةً ناسكٌ تلميذٌ للقديس يوسف الهدوثي - وهو شيخ عظيم توفي عام ١٩٥٩: "كنت لوحدي مع القديس يوسف فقال لي: مضت سنوات عديدة يا بني حتى استطعت إدراك سر نمو النعمة الإلهية. كيف تنمو النعمة في قلب الإنسان؟" سأل الراهب، الذي كان شاباً حينها، القديس يوسف: "كيف تنمو النعمة أيها الشيخ؟" ولم يجبه الشيخ بشيء.. بقي صامتاً.. ولم يُصِرَّ الراهب الشاب على تلقي إجابة.

وفيما كان هذا الناسك العجوز يكلمني قال لي: "مرّت سنوات كثيرة علي أنا أيضاً حتى أدركت كيف تنمو النعمة". وبشكلٍ طبيعي سألته السؤال ذاته: "كيف تنمو النعمة أيها الشيخ حتى استدعى الأمر سنواتٍ كثيرةً لكي تدرك أنت والقديس يوسف ذلك؟"

بالطبع، إنه لأمر مختلف كلياً أن تعبر عن الأمر بالكلمات وأن تستوعبه بعد سنواتٍ عديدة من النسك والخبرة العملية.. أجابني (الشيخ): "تنمو النعمة يا بني عبر الشكر"

يقول الأنبا اسحق السرياني، قديس الكنيسة العظيم والهدوثي أنّ "المفتاح الذي يفتح ينابيع الأسرار المقدسة هو القلب الممتنّ، القلب الشكور. إذا نجحتَ في قول "شكراً" لله وشعرتَ بالحاجة لشكر الله من أجل الأشياء التي مَنَحَكَ إياها، فاعلم أن النعمة ستنمو في داخلك. إن لم تفعل ذلك، وكنت راضياً بما أعطي لك، أو أنك بطريفةٍ ما تطلب المزيد ولكن بدون هذا الإحساس بالامتنان، فسيستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى تتعلم كيف تقيّم الأمور بشكل صحيح وتؤدّي الشكر لله".

والأكثر من ذلك، كان أحدهم يقول أن رجل الله القديس الذي عانى الكثير من التجارب يشكر الله حتى على أصغر الأشياء. ليس كأمرٍ اعتيادي مثل قولنا "شكراً لك يا رب أن عملي يجري على ما يرام"، هذا لا يساوي شيئاً. قد تكون هذه هي البداية. ولكن الامتنان العميق الآتي من وجودنا بأكمله هو حين نشكر الله من أجل كلِّ ما هو حولنا. حتى أصغر حركات أجسادنا، حتى أصغر الأشياء، مثل نبتة صغيرة.. عصفور.. الهواء.. الجو.. النجوم.. الشمس.. كل شيء. من مِثا شكر الله لأنه خلق العالم؟

وخاصة في عصرنا الذي عزّلتنا عن خليقة الله وحاصرنا بأشياء اصطناعية وأبعدتنا عن الطبيعة. في عصر عدم الامتنان هذا لا نشعر بأننا شاكرون لله. حين يحدث هذا، حين لا نشكر الله، فإننا لا نشكر أخانا الإنسان أيضاً، ولا نشكر زوجنا أو زوجتنا أو أطفالنا أو والدنا ولا حتى أنفسنا. لا نشكر أحداً البتة. نكتفي بالقول "حسناً أنا بخير إلى حدٍ ما. الشكر لله!"

لكنَّ قلب رجل الله لا يتحرك بهذه الطريقة. إن رجل الله يشكر الله على كل شيء.. على كل ما يحيط به، والأهم أنه يشكره لأنه هو الله. تذكروا كيف نقول عند ترتيب المجدلة: "نشكرك من أجل عظيم جلال مجدك!" نشكرك لأنك عظيم وقُدوس ومُمجَّد ومليء بالنعمة وأنت أبونا ونحن أولادك. نحن أولاد أبٍ غني وورثة كل عظمة الله هذه. نشكره لأنه لا متناهٍ. وكل ما حولنا جميل، لأننا نقدم كل شيء لله بامتنان؛ آمناً.. صراعاتنا.. أمراضنا.. تجاربنا.. أحزاننا.. فشلنا.. وحتى موتنا.. نقدمها لله بامتنان. نشكرك يا ربنا.

أتذكرون ما كان يقوله الشهداء؟ "نشكرك يا رب لأنك جعلتنا أهلاً للموت من أجلك". كانوا يعتبرون استشهادهم سبباً للامتنان.

أتذكر ذات مرة حين كان شيخنا يقدم النصائح لنا. كان يقول لليافعين الذين أرادوا أن يصيروا رهباناً: يجب أن تكونوا ممتنين لله لدعوته إياكم إلى هذه الحياة (أي الحياة الرهبانية). لا تظنوا أنكم قمتم بأمرٍ شديد العظمة باتباعكم الرب. لا تظنوا أنكم ضحيتم بشيء عظيم. ما الذي ضحيتم به؟ لا شيء. قد تقولون "لقد ضحيت بشهاداتي، ضحيت بشبابي، ضحيت بعلاقتي مع والدي، ضحيت بزواج محتمل، ضحيت بالسيارات التي كان يمكن أن أشتريها، أو بثروتتي أو مستقبلي أو حاضري.. بكل شيء.. بكل نفسي! ولكن، ما هي هذه الأشياء؟ لا شيء!

ما هي هذه الأشياء أمام عظمة محبة الله؟ لا شيء! أشياء مؤقتة! قدمتم أشياء مؤقتة وحصلتم بالمقابل على ما هو أبدي. قدمتم أشياء فانية وتلقيتم أشياء لا تفتنى. قدمتم أشياء مادية وتلقيتم أشياء سماوية، التي ستتخلون عنها في وقت ما (أي الأشياء المادية) أو ستتخلى هي عنكم، أحد الأمرين. حين تأتي ساعة الموت، هل ستأخذون معك سعادتكم أو حكمتكم أو ثروتكم أو مشاريعكم أو امرأتكم أو أولادكم أو أي شيء تملكونه في الدنيا؟ لا شيء مطلقاً! سيأتي وقت لا محالة، لكم ولي ولكل أحدٍ، حين سنن فصل عن كل هذا، شئنا ذلك أم أبينا. وبالتالي، ما الذي قدمتموه لله؟ أشياء مؤقتة.. وما الذي أعطاكم إياه بالمقابل؟ أشياء سماوية أبدية خالدة.

يقول بولس الرسول: "أحسب كل شيء نفاية لكي أربح المسيح". إذا فهمنا هذا الشيء، سوف تشاهد توقنا للذهاب إلى الكنيسة وتقبُّل جسد المسيح ودمه والاستماع إلى كلمة الله. ولكننا على عكس ذلك اليوم، نذهب إلى الكنيسة لساعةٍ على الأكثر، وليس كل يومٍ أحدٍ، ونعتبر الله مديناً بأن يخدم كل احتياجاتنا. وفي حال سمح الله بتجربةٍ ما لنا، واحسرتاه! نغضب منه ونقول: "أذهب إلى الكنيسة كل يومٍ أحدٍ ومع ذلك أصابتنى هذه المحنة. أيُّ إله هو هذا؟ يجب أن يحميني ويعتني بي ويبعد عني كل هذه المحن.. لماذا سمح بحدوث هذه الأشياء السيئة لي، فيما يمنح الراحة للناس الذي لا يذهبون إلى

الكنيسة ويشتمون طيلة النهار والليل؟ " وكأننا عميان ونعتبر الله مديناً لنا ولديه التزام بأن يخدمنا، ويدين لنا بالكثير من الفضل لأننا قدمنا له معروفاً بذهابنا إلى كنيسته. وكأننا نتسامح معه في حياتنا. لسنا قادرين أن نفهم أننا نحن المحتاجون إلى الله. ليس لدى الله احتياجات. إما أن نذهب نحن إلى الكنيسة أو لا نذهب، إما أن نخلص أو لا نخلص، إما أن نتبعه أو لا نتبعه. نحن لا نضيف شيئاً إلى الله كما أننا لا نحرمه شيئاً. إن الله ممجد في ذاته وليس بحاجة إلينا لتمجيده. إننا نحن المحتاجون للصلاة والدراسة والجري إلى الكنيسة.

بالنتيجة، فلنتعلم كيف نشكر على كل شيء. "نشكرك يا الله. نشكرك يا الله من أجل كل شيء يجري حولنا، لأنك أنت إلهنا وأبونا، لأنك أنت بنيت هذا العالم والخليقة.. خلقتنا.. نشكرك من أجل كل ما لدينا".

حين يتحرك القلب بالشكر بهذه الطريقة، عندها تصبح المعاناة أخف، وتكتسب تجاربنا معنى آخر، وتستنير أعيننا ونرى حياتنا بشكل مختلف داخل البعد الأبدي لملكوت الله.

Source: Met. Athanasios of Limassol. Thankfulness - The Key that Attracts the Grace of God. Orthodox Teaching of the Elders (otelders). February 12, 2021. <https://otelders.org/theology-and-spirituality/thankfulness-the-key-that-attracts-the-grace-of-god-met-athanasios-of-limassol/>